السّنة الثّالثة مقياس " النقد البنيويّ التكوينيّ " ـ 2 ـ

السّداسي السّادس إعداد د. امحمّد يقوته نور

نقد و مناهج

5 ـ أصداء " البنيويّة التّكوينيّة " في النّقد العربيّ المعاصر ـ 2 ـ

يمكن اعتبار " البنيويّة التكوينيّة " أحد أكثر المذاهب النّقديّة الغربيّة انتشارا في العالم العربيّ ، و على نحو لم يتح للفرع الآخر من البنيويّة و هو " البنيويّة الشّكلانيّة ". و لعلّ السّرّ ـ في هذا الانتشار ـ يكمن في هَيْمنَة الاتّجاهات اليساريّة و الماركسيّة تحديدا في أكثر البيئات النقديّة العربيّة في الخمسينيّات و الستينيّات و السّبعينيّات من القرن العشرين . و يلاحظ سَعْيُ كثير من النّقّاد العرب إلى تحقيق تفاعل خلّاق بين النّصّ الأدبيّ العربيّ : القديم و المعاصر و بين المناهج الغربيّة الوافدة .

و من الدّراسات الهامّة التي استثمرت منهج " البنيويّة التكوينيّة " في تحليل النّصّ الشّعريّ الأدبيّ بحث الطّاهر لبيب (من تونس) الموسوم : " سوسْيُولوجيا الغزل العربيّ ـ الشّعر العذريّ نموذجا " ، حيث تعامل الباحث مع الشّعر العذريّ بوصفه تعبيرا عن رؤية شعراء قبيلة " بني عُذْرَةَ " للعالم ، و ذلك عن طريق ربط شعرهم بسياقه التّاريخيّ و إطاره الاجتماعيّ . فقد جعل الباحث الطاهر لبيب من الشعر العذريّ معبّرا عن رؤية قبيلة " بني عذرة " للكَوْنِ ، أمّا دور الشّعراء العذريّين فكان المشاركة بحصّة أكبر من عامّة أفراد قبيلة " بني عذرة " في صياغة هذه الرّؤية ، بعد استلهام مفردات وَعْيِهم الجَمْعِيِّ في تلك الحقبة من العصر الأمويّ ، من خلال مرحلتيْ : " الفهم " و " التّفسير " .

و لقد وقف الباحث " الطّاهر لبيب " عند بنية " الشّعر العذريّ الغزليّ " مُفترضا أنّ شعرهم يؤلّف "بنية دالّة " متماسكة ، على الرّغم ممّا فيه من تعارضات و تناقضات . و قد عَدَّ الباحث هذه البنية ، كما لو أنّ شاعرا واحدا أنتجها ، و بهذا ستظهر حدودها اللغويّة و الجماليّة ، و ما تحمله من رؤية معيّنة للعالم ، و ما ترتبط به من علاقات التّماثل بين عالم الواقع و عالم الفنّ .

ثمّ بحث " الطّاهر لبيب " طريقة تَشَكُّلِ " بنية الشّعر العذريّ الغزليّ " ، و تَعَقَّبَ مسيرتها التاّريخيّة منذ العصر الجاهليّ إلى العصر الأُمويّ ، فلاحظ أنّ إنسان الجزيرة العربية قد انتقل من وَضْع شبه ملحميّ إلى وضع أكثر معقوليّة و بساطة ، و من شخصية سادِيَة حريصة على ما قبل الموت إلى أخرى ماسُوشِية تحرص على ما بعده " .

و انتقل الباحث " الطاهر لبيب " إلى تحديد " الكَوْن العذريّ " الّذي أنشأته زُمْرَةُ شعراء " بني عذرة " بالمعنى الّذي يَنْشُدُهُ " لوسيان غولدمان " ، و الذي يتمثّل في أنّ كلّ جماعة تُفْرِزُ عددا من الأفكار و المعتقدات التّقويميّة و الواقعيّة التي يَقْبَلُ بها جميع أفراد الجماعة ، بوصفها بديهيات لا تحتاج إلى برهنة أو تعليل ، و تُمثّل موقفهم المشترك تُجاه " هذا الكون الذي ترتبط بنيته ، إن كانت متماسكة بالقدر الكافي ، بعلاقة تَماثُل مع بنية عالَم الزّمرة الواقعيّ .

و قد أعاد الباحث النّظر في جُملة من التّصوّرات الشّائعة التي عَلِقَتْ بالشّعراء العذريّين ، من بينها " مسألة العِفَّة " التي يراها ليست نتيجة للوَرَعِ الدّينيّ ، لأنّ الإسلام شجّع الممارسة الجنسيّة داخل مؤسّسة الزّواج ، و باستطاعة شعراء بني عذرة أن يتزوّجوا كبقيّة المسلمين ، و فضلا عن ذلك فقد كان الشّاعر العذريّ يتحدّث عن جسد الحبيبة بطريقة الشّعراء الإباحيّين ، لكنّه يحرص على القِسْم الأعلى من جسد الحبيبة ؛ إذ إنّ " الكَوْن العذريّ " ، و بالتّالي " الوَعْي الممكن " لهذه الزّمرة ، يحاول استبقاء المستحيل في الواقع ، و ذلك لأن الانسجام مع هذا الواقع لا يستمرّ إلاّ بفضل هذه الصّعوبة .

ثمّ انتقل الباحث ـ أخيرا ـ إلى المرحلة الثانية من عمله و هي مرحلة " التّفسير " ، فَتَصَدَّى لدراسة البنية الاجتماعيّة في العصر الأمويّ ، لأنّها الإطار الأوسع لبنية هذه الزّمرةِ زمرةِ الشّعراء العذريّين ، فَتَوَصَّلَ إلى قناعة بهَامشيتهم على الصّعيديْن : المادّيّ و المعنويّ في الوقت ذاته ، لأنّهم فقراء ، وليسوا ذوي شَأْنٍ .

و ربط الباحث ـ في النّهاية ـ بين أشعار الشّعراء العذريّين و ظروفهم الاجتماعيّة و الاقتصاديّة و سياقهم التّاريخيّ من خلال رؤيتهم للعالَم ، فلاحظ أنّ حرمان " الشّاعر العذريّ " من المتعة الجسديّة بالمرأة التي يحبّها يوازي حرمان

قبيلة " بني عذرة " من امتلاك الأرض و وسائل الإنتاج في بيئتهم البدويّة التي ـ غالبا ـ ما كان يستغلّها سكّان الحواضر .

و مجمل القول أن الباحث الطاهر لبيب نجح في إبراز خصوبة المنهج البنيويّ التكوينيّ و ثرائه ، من خلال الكشف عن شبكة " البنية الدلاليّة " للقصيدة العذريّة ، و وَضْعِ " النّصّ الشّعريّ العذريّ " في إطاره الاجتماعيّ و شروطه التّاريخيّة .

و من الدّراسات التي اعتمدت ـ أيضا ـ على مُعطيات المنهج البنيويّ التّكوينيّ في تحليل النصّ الشعريّ العربيّ المعاصر ، تلك الدراسة التي أنجزها عليّ عبّاس علوان (من العراق) في عام 1978 م ، بعنوان : " شعر الشّباب : دراسة في بعض نماذجه " .

و لقد حاول الباحث في مستهلّ دراسته أن يجعل من الشّباب فئة مستقلّة في المجتمع عن غيرها من الفئات ، لها رؤيتها الخاصّة للكون و الوجود ، و لها إحساسها بالواقع الذي يتشكّل منه وعيها القائم ، مثلما لها أحلامها و طموحاتها التي يتشكّل منها الوعي الممكن .

و قد استثمر الباحث مفهوم " التّماثل " لدى " لوسيان غولدمان " في تأكيد حقيقة أن هناك عالَمَيْن متماثلين لدى الشّعراء الشّباب ، و من هنا ، عَزَا أحد أسباب الغموض في شعرهم إلى فشل الشّاعر الشّابّ في إذابة ذاته في المجموع ، فيضطرّ ـ في النّهاية ـ إلى"خلق عالمه الفنيّ المستقلّ عن تجارب الحياة العاديّة ".

كما ركّز الباحث على الرّؤية المأساوية لهؤلاء الشّعراء الشّباب من خلال تأكيده حالة الضّياع التي يعيشونها . و لكي يبرز هذه الرّؤية بشكل واضح ، لجأ إلى البحث عن معاني " الزّمن " ، و وقوع هؤلاء الشّعراء تحت وطأته القاسية ، و لكي يبرز هذه الصّورة نراه يعتمد حسّه النقديّ المتمرِّن في اختيار النّماذج الشّعريّة التي تعبّر عن هذه الرّؤية ، عندما اختار من قصيدة " أوراق " للشّاعر " خَزْعَل الماجِديّ " أبياتا يخاطب فيها كلّ زمن ، في قوله :

إذن أنتَ مُلقَى لِغِيِّ الزَّمان

و ملقى لأفلاكه و الخراب

فَأيُّ الزّمان إذن أنتَ فيه

و أيَّ عَـــذاب

و ممّا تجدر الإشارة إليه تأكيد الباحث على مفهوم " الوعي الممكن " الذي تتبنّاه فئة الشّعراء الشّباب ، بقوله : " و يبقى لكلّ شاعر رؤيته و تجربته و معاناته ، كما تبقى لكلّ شاعر مهاراته في استخدام أدواته الفنيّة و مدى قدرته على توصيل تجربته و إحداث النّشوة في أعماق متلقّيهِ ".

و قد توصّل الباحث عليّ عبّاس علوان ـ أخيرا ـ إلى أنّ رؤية هؤلاء الشّعراء الشّباب مشوّشة ، فصرّح قائلا : " القصيدة بكاملها لا تعبّر عن تجربة محدّدة واحدة ، و إن كانت ـ في إطارها العامّ ـ تعبِّر عن معاناة الفرد العربيّ في حياته المسحوقة أمام العنف و أَنْهار الدّماء . و إذا كانت القصيدة قد استطاعت أن تلامس عالَم الشّهداء و القتلى و ملامح الثّورة و الطّريق إليها، فإنّها ـ في تقديري ـ تكشف عن تَشوُّشٍ في رؤية الشّاعر ، و بَدَا الاضطراب واضحا في هذه الرّؤية ، ممّا أَكْسَبَ القصيدة غموضا و إِرْباكا ، على الرّغم من براعته في جوانب الإيقاع و العَروض " .

****